البَابُ الثَّانِى وَالعِشْرُون

الترغيب فى تحصيل الأنوار

[أنوار أذن لها فى الوصول ، وأنوار أذن لها فى الدخول] .

قلت : أما الأنوار التى أذن لها فى الوصول فهى أنوار الإيمان ، وهى لأهل الدليل والبرهان ، لأن قلوبهم لم تتفرغ من الأغيار ولم تمح منها صور الآثار ، فلما جاءت وجدت داخل القلب مملوءًا بصور الآثار فوقفت فى ظاهر القلب .

وأما الأنوار التى أذن لها فى الدخول فهى أنوار الإحسان ، من الشهود والعيان ، وذلك لأنهم لما فرّغوا قلوبهم مماسوى ربهم ، دخلتها الأنوار فوجدت متسعًا فسكنت سويداء قلوبهم . وعلامة النور الواصل والداخل أن صاحب النور الواصل للظاهر فقط ، تراه تارة مع الدنيا ، وتارة مع الآخرة ؛ تارة مع حظ نفسه وتارة فى حق ربه ، تارة مع الغفلة وتارة مع اليقظة ، وصاحب النور الداخل لسويداء القلوب ، لاتراه إلا مع ربه ، لايشغله عنه حظوظ الدنيا ولا حظوظ الآخرة ، غائبًا عن نفسه حاضرًا مع ربه .

قال بعض الحكماء : إن الإيمان إذا كان فى ظاهر القلب كان العبد محبًّا لآخرته ودنياه فيكون صاحبه تارة مع ربه وتارة مع نفسه ، وبقدر تمكن النور فى القلب ودخوله إليه يكون بغض العبد للدنيا وتركه لهواه اهـ .

وفى هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« النُّورُ إذا دَخَلَ الْقَلْبَ انْفسَحَ وانْشَرَحَ ، قِيلَ : فَهَلْ لَهُ مِنْ عَلاَمَةٍ يَارَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، التَجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرورِ ، وَالإِنَابَةُ إلَى دَارِ الخُلُودِ ، والتزَوُّدُ لِسُكْنَى الْقُبُور ، والتَّأَهُّبُ لِيَومِ النُّشورِ » اهـ .

ثم اعلم أن الأنوار التى أذن لها فى الوصول عامة لجميع المؤمنين ، وقد تقدم قول أبى الحسن : لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق مابين السماء

والأرض . وأما الأنوار التى أذن لها فى الدخول فهى خاصة بالخواص أهل التفرغ من الأغيار ولوث الأنوار . فأما من كان قلبه محشوًّا بصور آثارها ، فلايطمع فى نيل أسرارها ، كما أبان ذلك بقوله :

[**ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوًّا بصور الآثار ، فارتحلت من حيث جاءت**] .

قلت : رب هنا للتكثير : أى كثيرًا ماترد عليك أنوار عالم الغيب لتغنيك عن عالم الشهادة فتجد قلبك محشوًّا بصور عالم الشهادة فترحل عنك وتتركك محبوسًا فى يدها .

أو تقول : كثيرًا ماترد عليك أنوار المعانى لتخرجك من سجن الأوانى ، فتجد قلبك مملوءًا بها ، فتتركك فى وسطها محجوبًا بها .

أو تقول : كثيرًا ماترد عليك أنوار الملكوت ، فتجد قلبك محشوًّا بظلمة الملك ، فتتركك فى ظلمة الكون .

أو تقول : قد ترد عليك أنوار الجبروت ، فتجد قلبك محشوًّا بأنوار الملكوت فرحًا بها قانعًا ببهجتها ، فتتركك واقفًا معها وتنادى عليك : القناعة من الله حرمان ، الذى تطلب أمامك ، ولو كان العلم ينتهى إلى حد محدود لم يقل الله تعالى لسيد العارفين : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[1] . قال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّ يَوْمٍ لَاأَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا لَا يُورِكَ لى فى طُلُوعِ شَمْسِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فالمانع للقلب من دخول الأنوار هو وجود الأغيار كما أشار إلى ذلك بقوله :

[**فرِّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار**] .

قلت : التفرغ هو الخلو من الشىء والتنظيف منه ، والأغيار : جمع غِير بكسر الغين وفتح الياء ، ويصح أن يكون بفتح الغين وسكون الياء وهو أليق ؛ والمراد به حينئذ السِّوى ، وإنما جمعه لتعدد أنواعه كما قالوا فى جمع العالمين .

يقول رضى الله عنه : فرغ قلبك أيها الفقير من الأغيار ، وهو سوى الله ، بحيث لايتعلق قلبك بشىء من الكون علويًّا أو سلفيًّا ، دنيويًّا أو أخرويًّا ،

---

(١) طه : ١١٤ .

حسيًّا أو معنويًّا ، كحب الخصوصية وغيرها من الحظوظ ، فإذا رحل قلبك من هذا العالم بالكلية ولم يبق فيه إلا محبة مولاه ، فإنه يملأ بالمعارف ، بحيث يكشف عنك حجاب الوهم ، ويذهب عنك ظلمة الحس ، فتشاهد الأشياء كلها أنوارًا ملكوتية مشاهدة ذوقية تمكينية ، ويملؤه - أيضًا بأسرار وهي أسرار الجبروت ، فتغيب بالجمع عن الفرق ، وبشهود الجبروت عن شهود الملكوت ، وتكاشف بأسرار القدر ، فيهب عليك نسيم برد الرضا والتسليم ، وأنت فى حضرة النعيم المقيم ، عند الملك الكريم ، فالأسرار على هذا أبلغ من المعارف ، فالمعارف أنوار الملكوت ، والأسرار أنوار الجبروت ، لأن السائر قد يكشف له عن نور الملكوت فيشهد الكون كله نورًا ، لكنه مفتقر إلى تلك الأنوار ليترقى بها إلى التمكين فى شهود الذات ، كافتقار القارئ إلى النظر فى الرسوم ، فإذا حفظ القارئ ، المعنى وتمكن منه محا الرسوم ولم يفتقر إليها ، كذلك السالك يكشف له أولا عن نور الكون فيغيب فى النور عن ظلمة الحس ، ثم لايزال فى السير حتى يقبض المعنى ويتمكن منه ، فلا يحتاج إلى مشاهدة ، فيستغنى عن نور الملكوت بنور الجبروت ، قد تقدم هذا المعنى عند قول المؤلف : اهتدى الراحلون إلخ الحكمة ، فيمتحى السوى عن عين قلبه بالكلية ، ويغيب عن نفسه وحسه بشهود الأحدية ، ولله در قول الشاعر :

إنْ تَـلاَشَى الْكَـوْنُ عَنْ عَـيْنِ قَلْبِى
شَـاهَـدَ السِّـرُّ غَيْبَـهُ فى بَيَـانِ
فَـاطْرَحِ الْكَـوْنَ عَنْ عِيَانِـكَ وَامْـحُ
نُـقْـطَةَ الْـغَـيْنِ إنْ أرَدْتَ تَـرَانِى

ويحتمل أن يريد بالمعارف علوم العرفان ، وبالأسرار الأذواق والوجدان ، فتكون المعارف هى علوم المعرفة ، بحيث يعرف فى كل شىء ، ولاينكر شيئًا ، والأسرار أذواق تلك العلوم ، فإن المعرفة تكون أولا علمًا وآخرًا ذوقًا . ويحتمل أن يكون من عطف التفسير فتكون الأسرار هى المعارف ، والله تعالى أعلم .

ومن أراد سرعة السير إلى هذا المقام ، فليفرّغ قلبه وينظفه على التمام ،

فبقدر التخلية تكون التحلية ، وبقدر التصفية تكون الترقية ، ولأجل هذا نهوا السائر عن التزوج وعن التعلق بالأسباب إذ لايخلو من عُلقة ، فإذا تمكن من المعنى لم يبق له مراد إلا مراد معروفه ، وصار كل مايبرز من عند مولاه تلقاه بالقبول .

فإن طال بالمريد السفر ، وتأخر عنه الفتح والظفر ، فلم يدرك هذه الأسرار ولم يكشف له تلك الأنوار ، فلا يستبطئ من ربه النوال ، فإنه جواد كريم ، ولكن يستبطئ منه وجود الإقبال ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[**لاتستبطئ النوال ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال**] .

قلت : الحق سبحانه جواد كريم حليم رحيم :

مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْه ذِرَاعًا تَقَرَّبَ مِنْهُ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِى أَتَاهُ هَرْوَلَةً . كما فى الحديث .

فإن توجهت إليه بقبلك ثم تأخر الفتح من قبله فلا تستبطئ منه النوال ، أى العطاء وهو كشف الحجاب ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال فلعل إقبالك عليه لم يكن بكليتك ، فإن الله سبحانه يقول بلسان الحال : وليس يدرك وصالى كل من فيه بقية أو كان بحرف أو خط . وأما لو زالت أغيارك لأشرقت أنوارك ، ولو تطهرت من جنابة الغفلة لاستحققت الدخول إلى مسجد الحضرة ، وقد يكمل إقبالك ويفوتك الأدب مع سيدك ، وهو استبقاؤك النوال ولو صح منك الإقبال .

قال بعضهم : هب أن السيد الكريم أهل لكل فضل وكرم ! أفترى العبد يقبل الأدب بين يدى سيده ، ويكشف جلباب الحياء عن وجهه ؟ فإن فعل ذلك فهو بالعقوبة أولى من الكرم .

وقد قال أرباب المعرفة : لأن تكون صاحب استقامة خير من أن تكون صاحب كرامة اهـ . ومن باع نفسه لله وكان عبدًا مملوكا لمولاه فأى شىء يستحق على مولاه .

حكى عن ذى النون المصرى رضى الله عنه : أنه رأى رجلا قد اشترى دارًا وأراد أن يكتب عقدها ، فقال له ذو النون : يا أخى إن قبلت وصيتى أوصيتك ،

فقال نعم قل ياسيدى ، فقال له : لاتشتر دارًا تفنى وتدع دارًا تبقى ، فقال له : من لى بها ؟ فقال له : هلا اشتريت من الله دارًا دار السلام ومجاورة الكرام ، لتنال فيها الأمان ، وتتنعم بنعيم لايدرك بالأثمان ؟ دار لها أربعة حدود : الأول منازل الخائفين . الثانى منازل العارفين . الثالث منازل المشتاقين . الرابع رياض المحبين ، دار سقفها عرش الرحمن ، وبابها باب الرضوان ، مكتوب على بابها بالخط الأزلى :

دَارُ تُقًى وَرِضًا عَلَيْهِمَا أُسِّسَتْ وَنِعْمَ دَارُ المتَّقِينْ
ثُمَّ نَادَى الْحَقُّ مِنْ أَرْجَائِهَا « ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينْ »

فإن أردت عقد شرائها قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)[1] .

هذا مااشترى العبد الثواب من الملك الوهاب ، بثمن قيمته الخروج من ذل المعاصى إلى عز الطاعة ، ومن تعب الحرص والطمع إلى راحة الزهد والورع ، شهد بذلك عدول القلب واللسان ، وصحيح مانزل من القرآن ، وبتاريخ حل عقدة الإصرار من وقت الإنابة : (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ)[1] .

قال له : نعم ، ثم تصدق بماله وخرج معه إلى الله اهـ .

ثم من صح إقباله على الله لم يضيع شيئًا من الأوقات فى غير طاعة مولاه ، كما نبه على ذلك بقوله :

[حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها ، وحقوق الأوقات لايمكن قضاؤها] .

قلت : أما الحقوق التى فى الأوقات ، فهى الطاعة التى عيّن الله تعالى لها وقتًا محدودًا ، كالصلوات الخمس والسنن المؤكدة ، وكذلك الزكاة والصيام ، لها وقت محدود فى العام ، فإذا خرج وقتها أمكن قضاؤها وإن كان يسمى مفرّطًا ؛ لكن بعض الشر أهون من بعض . وأما حقوق الأوقات بأنفسها ، فهى مراقبة الحق

---

(١) التوبة : ١١١ .

أو مشاهدته كل واحد على قدر وسعه :

(لَا يُكلفُ الله نَفْسا إلّا مَاآتَاهَا)[1] .

وهذه الحقوق إذا فات وقتها لايمكن قضاؤها ، إذ الوقت الثانى له حق مخصوص لايسع غيره . فما من لحظة إلا ويجب عليك فيها أن تكون عاملا لله مشتغلا فيها بما يوصلك إلى قربه ورضاه ، وهذا معنى قوله :

[إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه] .

قلت : مامن وقت أو لحظة ترد عليك أيها العبد إلا ولله عليك فيها حق جديد من ذكر أو فكرة أو نظرة أو من مراقبة أو مشاهدة أو خدمة حسية أو معنوية :

(قَدْ علمَ كُلُّ أنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) .

وأمر أكيد من التحقيق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية ، فإن غفلت عن الحق الجديد أو الأمر الأكيد فى وقت مّـا ودخل الوقت الثانى ، فقد فاتك القضاء وندمت على مامضى ، فكيف يمكن أن تقضى فى الوقت الثانى حق غيره ، وهو أيضًا له حق يجب عليك أن تؤديه فيه ، فلا يمكنك أن تقضى حق الوقت الأول فى الوقت الثانى وأنت لم تقض حق الله فيه أى فى الوقت الثانى .

والحاصل : أن كل وقت له حق ، فإن فات فلا قضاء له ، ولذلك قالوا فى الآداب : التصوف هو ضبط الأنفاس ، وحفظ الحواس . والأنفاس هى دقائق الساعات . وضبطها : هو عمارتها بأنواع الطاعات ، فإذا ضيع حقوق الساعات خرج عن أدب التصوف ، والله تعالى أعلم .

أوقات العبد

قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه . أوقات العبد أربعة لاخامس لها : نعمة أو بلية ، طاعة أو معصية ، وله على عبده فى كل وقت منها حق ؛ ففى

---

(١) الطلاق : ٧ .

النعمة الشكر ، وفى البلية الصبر ، وفى الطاعة شهود المنة ، وفى المعصية اللجأ والإنابة وطلب الإقالة بالمعنى ، وفى هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ أُعْطِىَ فَشَكَرَ ، وَابْتُلِىَ فَصَبَرَ ، وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، وأَذْنَبَ فَاسْتَغْفَرَ ، ثُمَّ سَكتَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ، فَقَالوا : مَالَهُ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ : أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » .

أى لهم الأمن يوم القيامة ، وهم مهتدون فى الدنيا . وقيل لهم الأمن فى الدارين وهم مهتدون إلى حضرته فى الكونين .

واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام يكاد أن يكون متعذرًا فى حق البشر ، قال تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)[1] .

أى ماعبدوه حق عبادته ، وما عرفوه حق معرفته ، فلهذا كانت حقوق الأوقات لايمكن قضاؤها ، لأنها راجعة لحفظ الأنفاس والخطرات . وقد أعيا الرجال حفظها فى حال الصلاة فكيف فى كل وقت ؟ لكن قد :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء) .

قال بعضهم : منذ عشرين سنة ما خطر على قلبى شىء سوى الله تعالى .

وقال الشيخ أبو الحسن : من أحب الله لم يستعمل جوارحه إلا فيما يوافق محبوبه ، وأنفاسه كلها محفوظة بالطاعة ، ولو حيل بينه وبين الخدمة لفارق الدنيا من ساعته ، لأن الطاعة قد صارت غذاء أرواحهم ، فإن فارقوها ماتوا نفعنا الله بهم آمين .

كيف يقاس العمر ؟

ثم فى تضييع حقوق الأوقات تضييع العمر الذى هو أعز من الكبريت الأحمر ، وهو الذى نبه عليه بقوله :

[مافات من عمرك لاعوض له ، وما حصل لك منه لاقيمة له] .

---

(١) الزمر : ٦٧ .

قلت : عمر المؤمن هو رأس ماله ، فيه ربحه وخسرانه ؛ فمن شد يده عليه كان من الفائزين ، ومن ضيعه فى البطالة والتقصير كان من الخاسرين ، فما فات منه فى غير طاعة ربه لاعوض له ، إذ ماذهب لايرجع أبدًا ، وماحصل لك منه لاقيمة له تفى بقدره ، إذ لو اشتريت ساعة منه بملء الأرض ذهبًا لكان نزرًا فى حقه ، لأن ساعة منه تذكر الله فيها تنال بذلك ملكًا كبيرًا ونعيمًا مقيمًا ، لو بيعت الدنيا بحذافيرها مابلغت منه عشر العشر ، ولأجل هذا المعنى اشتدت محافظة السلف الصالح على الأوقات وبذلوا مجهودهم فى اغتنام الساعات ، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير ، ولم يسمحوا لها فى الراحة والبطالة بقليل ولاكثير وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَاتَأْتِي عَلَى الْعَبْدِ سَاعَةٌ لايذْكُرُ اللهَ فِيهَا إلا كانَتْ عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال على كرم الله وجهه . بقية عمر العبد ما لها ثمن ، يدرك بها مافات ويحيى بها مامات . وقال الجنيد رضى الله عنه : الوقت إذا فات لايستدرك ، وليس شىء أعز من الوقت ، وفى معناه قيل :

السِّبَاقَ السِّبَاقَ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المَسْبُوقِ

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : أدركت أقوامًا كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظًا وأحرص شفقة منكم على دنانيركم ودراهمكم ، كما لايخرج أحدكم درهمه ولادينار إلا فى ورود منفعة واستجلاب فائدة ، كذلك كانوا لايضيّعون نفسًا من أنفاسهم فى غير طاعة أبدًا .

كان سيدنا على رضى الله عنه يقول لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا صنعتِ طعامًا فميِّعيه : أى اجعليه مائعًا خفيفًا ، فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة . وقال أبو على الجرجانى : مامضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وإنما أسف السويق وأعود لذكر الله تعالى . قال : وقد كنت عددت مابين المضغ والبلع ستين تسبيحة .

وقيل : إن ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة ، تبعث يوم القيامة خزائن مصفوفة أربعًا وعشرين خزانة ؛ فمن كان عمّرها فى الدنيا بطاعة الله رآها خزائن معمورة بالنعيم ، ومن كان ضيعها رآها خزائن فارغة خاوية ، فيتحسر عليها ويندم .

وجاء فى الخبر : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ بَيْنَمَا هُمْ فى نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُم نُورٌ مِنْ فَوْقُ أَضَاءَتْ مِنْهُ مَنَازِلُهُمْ كَما تُضِيء الشَّمْسُ لِأَهْلِ الدُّنْيَا ، فَيَنْظُرُونَ إِلى رِجَالٍ مِنْ فَوْقِهِمْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ يَرَوْنَهُمْ كَما يُرَى الْكَوْكبُ الدُّرِّيُّ فى أُفُقِ السَّماء وَقَدْ فُضِّلُوا عَلَيْهِمْ فى الأَنْوَارِ وَالْجَمَالِ والنَّعِيمِ كَما فُضِّلَ الْقَمَرُ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ يَسِيرُون عَلَى نُجُبٍ تَسْرَحُ بِهِمْ فى الهَوَاء يَزُورُونَ ذَا الْجَلَالِ والإِكْرَامِ ، فَيُنَادِى هٰؤُلاء يَا إِخْوَانَنَا مَا أَنْصَفتُمُونَا ، كُنَّا نُصَلِّى كَما تُصَلُّون وَنَصُومُ كَما تَصُومُون ، فَما هٰذَا الذِى فُضِّلْتُمْ بِهِ عَلَيْنَا ، فَإِذَا النِّداء مِنْ قِبَلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُون ، وَيَعْطَشُونَ حِينَ تروون ، ويَعْرُونَ حِينَ تُكْسَوْنَ ، وَيذْكُرونَ حِينَ تَنْسَوْنَ ، وَيَبْكُونَ حِينَ تَضْحَكُونَ ، وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ ، وَيَخَافُونَ حِينَ تَأْمَنُونَ ، بِذٰلِكَ فُضِّلُوا عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، فَذٰلِكَ قَوْلُهُ تَعَالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) اهـ .

ومما يعين على حفظ الأوقات واتصال الطاعات ، الزهد فى السوى ومحبة المولى ، فإن من حبِ شيئًا أكثر من ذكره ، وخدمه وخضع له ، وكان عبدًا حقيقة له ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا ، وهو لايحب أن تكون لغيره عبدًا] .

قلت : القلب إذا أحب شيئًا أقبل إليه وخضع له ، وأطاعه فى كل ما يأمره .

* إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ *

وهذه حقيقة العبودية : الخضوع والطاعة ، وليس للقلب إلا وجهة واحدة وليس للإنسان إلا قلب واحد . قال تعالى :

(مَا جَعَلَ اللهَ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فى جَوْفِهِ)[1] .

وإذا كان للقلب وجهة واحدة ، فمهما أقبل بها على مولاه أعرض عما سواه وكان عبدًا له حقيقة ، وإذا أقبل على هواه أعرض قطعًا عن مولاه وكان عبدًا لسواه ، والحق سبحانه لايرضى لعبده أن يكون عبدًا لغيره . قال تعالى فى ذم من كان عبدًا لهواه :

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ)[2] .

فالآية نص فى ذم من أحب هواه واتخذ رَبًّا من دون مولاه .

وأما تفسير أهل الباطن : فهو إشارة لاتفسير معنى ، وفى الحديث :

« إنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَحَدًّا وَمَطْلَعًا » .

فقد ورد عن شيخ شيوخنا سيدى محمد بن عبد الله فى إشارة هذه الآية أنه يمكن أن يكون مدحًا ، ومعناه حينئذ : أفرأيت من اتخذ إلهه الذى خلقه هواه لايحب سواه ، وأضله فى محبته على علم وبينه من ربه ، وختم على سمعه وقلبه بمحبته ، وجعل على بصره غشاوة منعه من النظر لما سواه ، فمن يهديه هذه الهداية العظمى من بعد الله ؟ لاهادى له سواه . وهذا فى ظاهر العبارة خارج عن سياق ظاهر الآية ، لكنه باطنها ولايصح تفسير الآية به .

واعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير المعنى المعهود ، ليس هو عندهم عين المعنى المراد ؛ ولكنهم يقررون الآية والحديث على مايعطيه اللفظ ثم يفهمون إشارات ودقائق وأسرارًا خارجة من مقتضى الظاهر ، خصهم الله بها لصفاء أسرارهم ، هكذا ذكر المؤلف فى لطائفة .

---

(١) الأحزاب : ٤ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

ثم نرجع إلى ماكنا فيه من طلب العبودية لله ؛ والحرية مما سواه . قال صلى الله عليه وسلم : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ » .

زاد فى رواية : « وَالزَّوْجَةِ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلا انتقش » .

وقيل للجنيد : من العبد ؟ قال : من بقى فى قلبه أدنى علاقة غير الله ، لأن المكاتب عبد مابقى عليه درهم . قيل له : ومن الحر ؟ قال : من تخلص من رق طبعه ، واستنقذ قلبه من شهوات نفسه . وكان للشبلى تلميذ فكساه رجل يومًا جبة وكان على رأس الشبلى قلنسوة فخطر على قلب التلميذ محبة القلنسوة ليجمعها مع الجبة ، فكاشفه الشيخ فأزال له الجبة وجمعها مع القلنسوة ورمى بهما فى النار وقال له لاتبق فى قلبك التفاتًا لغير الله . وأنكر عليه بعض أهل الظاهر المتجمدين على ظاهر الشريعة جهلا بالمقصود ، لأن أعمال الصوفية مبنية على العبادة القلبية ، لأن الأعمال الظاهرة إن لم يوافقها القلب كانت أشباحًا خاوية ، وبالله التوفيق .

واعلم أن من تخلص من رق طبعه واستنقذ من أسر نفسه فقد تحقق بمحبة ربه . والمحبة لها بداية ووسط ونهاية ؛ فأول المحبة وبدايتها ملازمة امتثال الأمر واجتناب النهى ، قال تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون اللهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ الله)[1] .

ووسطها لهج اللسان بالذكر ، وتعلق القلب بشهود المحبوب ، ونهايتها لاتدرك بالعبارة ، ولاتلحقها الإشارة وفى هذا المعنى قيل :

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اللهُ لارَبَّ غَيْرُهُ
حَبِيبٌ لِقَلْبٍ غَابَ عَنْ كلِّ مَقْصِدِ
هَنِيئًا لِمَنْ قَدْ نَالَ حُبَّ حَبِيبِهِ
وَخَاضَ بِتَرْكِ الْغَيْرِ أَكْرَمَ مَوْرِدِ

---

(١) آل عمران : ٣١ .

نَـعِيـمٌ بِـلَا حَـدٍّ لَـدَيْـهِ مُجَـدَّدٍ
عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَـاسِ فى كلِّ مَشْهَـدِ

روى أن أبا يزيد رضى الله عنه كان بحذاء المنبر فقرأ الخطيب :

(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) .

فصبر نفسه حتى طار الدم من عينه ، فهذه المعانى لاتدركها العامة ولا الخاصة ، وإنما يذوقها خاصة الخاصة ، وأنشدوا :

وَحَقِّـكَ لَـوْ أَفْنَيْتَ قَلْبِى صَبَـابَـةً
لَكُنْتَ عَـلَى هٰـذَا حَبِيبًـا إلى قَلْبى
أزِيـدُ عَلَى عَـذْلِ الْعَـذُولِ تَشَـوُّقًـا
وَوَجْـدًا عَـلَى وَجْـدٍ وَحُبًّا إلى حُب
أَبَى الْقَلْبُ إلا أنتَ فى كـلِّ حَالَـةٍ
حَبِيبًـا وَلَوْ دَارَتْ عَلَيْـهِ يَدُ الْكَـرْبِ
فَـلَا تَـبْـتَـلِيـهِ بِـالْـبُـعَـادِ فَـإِنَّـمَا
تَلَذُّذُ أَنْفَـاسِ الْمـحِبـين بِـالْـقُـرْبِ

ومعنى محبة الله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته ، وهدايته لمحبته من غير نفع له فى ذلك ، إذ لاتنفعه طاعة من أقبل عليه ، ولاتضره معصية من أدبر عنه ، إذ هو غنى عن الكل ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[لاتنفعه طاعتك ، ولاتضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذا ونهاك عن هذا لما يعود إليك ، لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ، ولاينقص من قدره إدبار من أدبر عنه] .

قلت : الحق سبحانه غنى عن كل شىء مفتقر إليه كل شىء ، لاتنفعه طاعة الطائعين ، ولاتضره معصية العاصين ، وسيأتى فى المناجاة : إلهى تقدس رضاك أن تكون له علة منك ، فكيف تكون له علة منى ؟ أنت الغنى بذاتك أن يصل إليك النفع منك ، فكيف لاتكون غنيًّا عنى اهـ . فلا تنفعه أيها العبد طاعتك

فيكون محتاجًا إليها ، تعالى الله عن ذلك ، ولاتضره معصيتك فيكون مقهورًا بها : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ)[١] فإنما أمرك بالطاعة ليقربك إليه .

(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[٢] .

وإنما نهاك عن المعاصى لما جعل فيها من علامة البعد عن حضرته ، فما أمرك الله بشىء إلا وفيه تقريب وآداب للحضرة ، ومانهى الله عن شىء إلا وفيه ضرر وإبعاد عن الحضرة ، لما فيه من سوء الأدب . والتحقيق أنه :

(لَايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[٣] .

لايزيد فى عزه إقبال من أقبل عليه ، لأن عزته أزلية قديمة ، ولاينقص من عمره إدبار من أدبره عنه ، لأنه غنى عن العالمين .

وفى الحديث القدسى : « لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَازَادَ ذٰلِكَ فى مُلْكِى شَيْئًا ، وَلَوْ أَن أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَانَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا » .

الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه . ومن أسمائه تعالى : (القدوس)

قال بعضهم : معناه أنه منزه عن كل كمال لايليق بذاته ، ولايقال إنه منزه عن النقائص ، إذ لاتصح نسبتها إليه حتى ينزه عنها ، إذ لاينفى عن الشىء إلا مايصح إثباته له ، فإن نفيت مالا يصح إثباته فربما يكون نقصًا ، كما يقال السلطان ليس بجزار ، ومن أجاز ذلك فإنما مراده التعميم وكمال التقديس والتنزيه .

قال بعضهم : لو أراد الخلق تنزيه الخالق إلا بلسان العجز ما استطاعوا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنعام : ٦٢ .
(٢) الأعراف : ٥٦ .
(٣) الأنبياء : ٢٣ .

« لَا أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » اهـ .

ثم قال ذلك البعض : إن صفات البارى وأسماءه كلها كليات والمخلوق جزء ، والجزء لايحيط بالكل ، ولايدرك حقيقته ، فليتحرز من التأويلات المخرجة عن المعنى اللائق بجناب الحق ، مسلّمًا ألا يعرف الله إلا الله وأنشدوا :

لَايَعْلَمُ اللهَ إلَّا اللهُ فَاتَّئِدُوا
وَالدِّينِ دِينَانِ إيمَانٌ وَإشْرَاكُ
وَلِلْعُقُولِ حُدُودٌ لَا تُجَاوِزُهَا
وَالْعَجْزُ عَنْ دَرَكِ الإدْرَاكِ إدْرَاكُ

فهذا أوائل المعرفة .

وأما وسطها : فهو اغتراف من بحر الحقيقة ، واستشراف على غوامض الطريقة ، ولاتسعه كل عقول العامة ، وإنما يخوض فيه الخاصة ، فإن ماتقدم كان فيه استدلال بالاسم على المسمى ، وهذه مرتبة تسقط التفرقة بين الاسم والمسمى وبين الصفة والموصوف . ثم قال ولهذا قالوا : الجمع سقوط التفرقة ، وليس بعد هذا إلا جمع الجمع وهو غاية المعرفة ، فأول المعرفة دلالة الصنعة على الصانع ، ووسطها دلالة الصانع على الصنعة ، وغايتها تلاشى كل مادون الحق .

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإكرام)[1] اهـ .

قاله الشطبى مختصرًا . هذا آخر الباب الثانى والعشرين .

وحاصلها : الترغيب فى تحصيل الأنواع بالتفرغ من الأكدار ، فإذا فرّغت قلبك وتأخر الفتح عليك ، فلا تستبطئ منه وجود النوال ، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال ، ولايكمل إقبال العبد على ربه حتى يستغرق الأوقات كلها فى طلبه ، فكل وقت من العمر لاثمن له ولا يمكنه التفرغ لحفظ الأوقات

---

(١) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

حتى يتحرر من رق الكائنات . فإذا تحرر مما سواه كان عبدًا حقيقة لمولاه ، فحينئذ اجتباه ، ولحضرته اصطفاه ، من غير منفعة له فيه ولاضرر ، وإنما يعود نفعه له وضرره عليه. ، إذا لايزيد فى عزه إقبال من أقبل ولا إدبار من أدبر ، وإنما وَصَل مَن وَصَل بمحض فضله ، وأبعد من أبعد بمحض عدله .

ومعنى وصول العهد إلى مولاه : علمه بنور عظمة ربه وسناه ، كما أبان ذلك فى أول الباب الثالث والعشرين بقوله رضى الله عنه :